تطوير الفلسفة إلى ما قبل عهد سقراط

كان هم الإنسان فى عهده الأول مقصوراً على الأشياء المحيطة به , والتى يرجو من ورائها فائدة ما لحياته , وكانت مهارته تتحلى فى التقليد والمحاكاة , والرقص والصياح , ولكن مرت به أجيال طويلة تعلم فى أثنائها لغة يتخاطب بها , ولما كانت اللغة أداة التفكير فقد ابتدأ يفكر تفكيراً هو أقرب للتأملات والأوهام فسر به حياته ومماته , ومخاوفه الكثيرة التى يراها فى الوحوش الكاسرة , ويسمعها فى الرعود والصواعق , والتى تزعجه فى أحلامه , وفى هذه التفسيرات البدائية نجد بذرة الفلسفة الأولى التى نمت فى العصور المختلفة , وتدرجت تدريجاً مستمراً , يبين لنا الأدوار المختلفة التى مر بها التفكير الإنساني , فتاريخ الفلسفة فى الواقع هو تاريخ العقل البشرى نفسه .

ونحن نتكلم الآن عن الفلسفة الإغريقية التى سبقت عهد سقراط , لأنها توضح نوعاً من التفكير يبتدىء ساذجاً بسيطاً , ثم يعلو شيئاً فشيئاً إلى التفكير العلمى المبنى على القواعد والبراهين , وليس مهما لدينا معرفة ما إذا كانت هذه الفلسفة قد جاءت عبقرية دون أن تتأثر بتيار أجنبي أم أنها تكلمة لفلسفة أخرى ظهرت فى بلد آخر كفارس مثلاً , لأن العقلية الإنسانية فى تطورها تصعد درجات واحدة , وعليه فالفلسفة التى ندرسها الآن يصح أن نعتبرها أنموذجا للتفكير فى عهده الأول , وكيفية تدرجه خطوات نحو التفكير المنطقى الصحيح وان الأمر الذى شغل بال المفكرين الأول , هو أصل الكون , فنفهم من ذلك أن الطبيعة بمظاهرها المختلفة هى التى أثارت تفكيرهم من مكمنه , وتصوروا فى بادىء الأمر أن السبب الأول للعالم شىء مادى محسوس , وهذه هى نظرية الفلاسفة الايونيين , وقد قال فيلسوفهم ((تاليس)) ان الماء أصل كل شىء ((تخرج منه جميع الاشياء واليه تعود)) وحاول أن يبنى نظريته على قواعد علمية , وهذه المحاولة هى التى وضعته فى مكانته من تاريخ الفلسفة , واختلف معه غيره من فلاسفة الايونيين , ولكن اختلافهم اقتصر على نوع المادة التى فرضوها أصلا للكون , واتفقوا معه

فى انها مادة محسوسة , ولهذا فاختلافهم صغير فى عين من يبحث عن تطور العقلية الإنسانية . وينظر إليها كأنها كل عام .

إلا أننا نلاحظ أن مذهب الايونيين يحاول التخلص شيئاً ما من المادة المحسوسة , فلقد فسر الفيلسوف (أنا كسمندر) اصل العالم بأنه ((مادة)) أيضاً إلا أنها خالدة غير محدودة ولا يمكن تعريفها :-

ونرى محالولة أخرى إلا أنها أجرأ من سابقتها فى مذهب البيثاجوريين نسبة إلى فيلسوفهم الاكبر بيثاجوراس , وقد قالوا إنه لا يمكن اتخاذه أصلا ماديـاً محسوساً للكون وانما يصلح أن نصدق أن شيئاً أصل للعالم بعلاقاته المختلفة , ومقاييسه , فهذه النظرية الجديدة لا تحفل بالمادة ذاتها وانما بشكلها , ولا تأبه بالماء والهواء وانما بالعلاقات والمقاييس . ولما كانت علاقات الاشياء كالامتداد والحجم والشكل والمسافات يعبر عنها بالاعداد ولما كان لا يمكن أن يوجد شىء فى الوجود عديم الشكل أو مستحيل القياس نتج أن كل شىء يدخل تحت العد واذاً فيصح اعتبارالعدد أصلا عاماً لجميع الاشياء

ولكن هل هذا الاصل الجديد مادى أم معنوى ؟ وليس عندنا جواب صريح . ومحتمل جداً أن يكونوا قد انقسموا فى فهمه فريقين :

هذه هى النظرية التى تنسب إلى بيثاجوراس وتسمى أحياناً ((نظرية العدد)) ثم ظهر بعدهم على مسرح الفلسفة الاليون (نسبة إلى المدينة الاغريقية الكبرى إليا) وقد انتهت إليهم فلسفة البيثاجوريين التى وصفنا . ونلاحظ أنهم كانوا يعترفون بالصلة التى بين أصل الكون فى نظرهم , والزمان والمكان , لأنه لا يمكن قياس شىء ليس له علاقة بالمكان والزمان .

أما هؤلاء الاليون فقد أنكروا وجود أية صلة بين أصل الكون الذى ابتكروه , وبين الزمان والمكان . ذلك لانهم جردوه عن المادة تجريداً كلياً , وقالوا إنه لا يمكن أن يدرك بالحواس وانما هو يفهم بالعقل وأطلقوا عليه ((الكائن المجرد))

ومن أهم فلاسفة هذه المدرسة كسينوفانيس وبارمينيدس , وهم يتفقون فى المبـدأ العام مع وجود اختلافات كثيرة فى فلسفتهم , ولسنا هنا حيال التكلام عنهم

ننتقل الآن من الفلسفة التحليلية إلى الفلسفة التركيبية , ولقد رأينـا كيـف جـرد الاليين كائنهم المجرد عن المادة والزمن والمكان , ثم إنهم أنكروا الطبيعة المادية وقالوا عن الكون المحسوس إنه مظهر كاذب . الا إنهم وجدوا أنفسهم مـضطرين للتكلم عن الكون الظاهر وهنا نشأت مسألة فلسفية معقدة لم نجد لها حلا . وهى أنه لم تكن توجد فى تلك الفلسفة أية علاقة بين ((الكائن المجرد)) والكائن المحسوس , فلما جاء هيرقليطس قرر أن أصل الكون انما هو من اتحـاد الكـائن المجـرد بالكائن المحسوس الذى نراه ونعيش فى جزء منه , ثم قال انه من طبيعة الاشـياء أن تكون فى تغير مستمر لا يتوقف وقد نشأت مسألة فلسفية جديدة بعد هيرقليطس وهى ما سبب هذا الاتحاد ؟؟ وكيف تكون الكائن المحسوس ؟ وقد قرر هيرقليطس تفسيراته كأنها مأخوذة من التجارب . أما امبيرولكيس فقد قال ان المـادة أصـل الكائن وأن القوة أصل الحركة

وأدرك اليأس الفلاسفة من إيجاد أسباب يعللون بها وجود الكائن المادى , وأخيـراً اهتدى انكساجوراس إلى أن ((العقل)) هو الذى كون العالم وأوجد له نظامـه , غير انه لم يكن سوى طبيعى كأسلافه . ولهذا لم يفطن إلى أن العقل شىء فـوق الطبيعة المادية . ولكن مهما يكن من الامر فقد وجد من يميز بين العقل والطبيعة , ومن يعترف بأن العقل أرقى منها , والفضل فى ذلك يعود إلى السوفسطائيين

والسوفسطائيون مدرسة قامت على الشك فى الحواس , وما تأتيه لنا من المعلومات , وكانوا يحملون على الحقائق التى وصلت الينا عن طريق الحواس أو تأثرنا فى معرفتها بالتقليد . وعلى العموم فقد أتوا بمبدأ البحث الموضوعى , هذه عجالة موجزة عن تطور الفلسفة التى سبقت عهد سقراط والذى نحب أن يلاحظه القارىء , هو تخاص العقل البشرى شيئاً فشيئاً من المادة فى تفسيره لأصل الكون المادى الظاهر , وسموه إلى التفسيرات المعنوية التى لا تدرك إلا بالعقل .